

الورقة التي بقيت في الدفتر

قصة مستوحاة من مقال «لا تلوموا الخريف» للأستاذة هدى بركات

في صباح يوم أحد، خرجت مريم تحمل مكنسة، ووقفت أمام شجرة التوت التي زرعها أبوها قرب باب البيت قبل ثلاثين عاما.

كانت الأوراق قد غطت العتبة، وتسلفت إلى أصص الزهور، واستقر بعضها فوق سيارتها. كنستها وهي تتمتم:

— لم ينقصني إلا هذا الخريف.

من النافذة، قال زوجها أمين:

— اتركي بعضها. بعد قليل ستسقط أوراق أخرى.

لم تجبه. جمعت كومة كبيرة، ثم هبت نسمة خفيفة، فانتشرت الأوراق من جديد.

توقفت، وأسندت المكنسة إلى الحائط. لم تكن تعرف لماذا أوشكت على البكاء بسبب عتبة لا تبقى نظيفة.

...

في غرفة الجلوس، كانت حقيبتها مفتوحة، وقد برز منها ملف أزرق كتبت على غلافه منذ سنوات: «مشروع المدرسة».

كانت مريم معلمة لغة عربية. أمضت اثنين وعشرين عاما بين السبورة والدفاتر، وحلمت طويلا بإنشاء مدرسة صغيرة؛ مدرسة فيها مكتبة واسعة، وساحة لا تبدو كأنها موقف سيارات، وفصول يتعلم فيها الأطفال دون خوف.

حين كان أبوها حيا، كان يسألها كلما زارته:

— متى ندخل مدرستك يا أستاذة مريم؟

فتضحك وتجيبه:

— حين يتكرم البنك علينا.

ثم توفي، وبقي السؤال.

على امتداد سبع سنوات، جمعت المال، وزارت مباني، وراجعت حسابات، وعادت في كل مرة إلى الملف الأزرق تضيف ورقة جديدة.

لكنها، منذ أشهر، صارت تفتحه كما يفتح المرء رسالة لا يعرف كيف يجيب عنها.

في الأسبوع السابق، وجدت مبنى مناسباً. كان عليها أن تدفع عربونا خلال أيام، وتبدأ إجراءات الاقتراض.

قال لها صاحب المكتب العقاري:
— هذه فرصتك. إن تأخرت، سيأخذه غيرك.
عادت إلى البيت تنتظر الفرح.
لم يأت.

• • •

في تلك الليلة، جلس أمين مقابلها إلى المائدة. كان يحكي شيئاً عن زميل له، لكنها لم تنتبه إلا حين سألها:
— هل سمعت ما قلت؟
رفعت رأسها:
— نعم... عن العمل.
ابتسم ابتسامة قصيرة، وأكمل طعامه.
بعد قليل قالت:
— أحياناً أشعر أننا لم نعد كما كنا.
وضع الملعقة.
— هذا صحيح.
أوجعتها بسهولة جوابه.
— وتقولها بهذه البساطة؟
نظر إليها طويلاً، ثم قال:
— لا أعرف كيف أقولها. منذ أشهر، كلما سألتك عما يشغلك قلت: «لا شيء». ثم نجلس أمام التلفاز.
أرادت أن تقول إنه أيضاً تغير، وإنهما كانا يضحكان أكثر، وإنه لم يعد يقترح المشي مساءً. لكنها تذكرت أنه دعاها إلى الخروج الخميس الماضي، فاعتذرت لتراجع أوراق المشروع، ثم بقيت ساعتين تحديقاً فيها دون أن تقرأ شيئاً.
قالت بصوت خافت:
— لا أعرف ما الذي يحدث لي.
هذه المرة لم يعد إلى طعامه.

• • •

بعد ظهر اليوم التالي، قصدت بيت أمها.
وجدتها في الحديقة تقص غصنا يابسا من شجيرة الورد. جلست مريم قريباً، ثم قالت دون مقدمة:
— ربما لن أفتح المدرسة.

أنزلت الأم المقص.

— هل حدث شيء؟

— لم يحدث شيء. هذا هو المشكل. المبنى مناسب، والفرصة موجودة... وأنا خائفة من أن أوقع.

سكنت قليلا، ثم أضافت:

— سيع سنوات يا أمي. كيف أتوقف الآن؟

وضعت أمها الغصن جانبا.

— لا أعرف إن كان عليك أن تتوقفي. لكن لا توقعي وأنت لا تعرفين لماذا تريدان الاستمرار.

— وأبي؟ كان ينتظرها.

نظرت الأم نحو البيت، كأنها تبحث عن ذكرى في نافذة.

— كان أبوك يحتفظ بقصاصات المواضيع التي يكتبها تلاميذك. هل تعرفين ذلك؟

رفعت مريم رأسها.

— أي مواضيع؟

— التي كنت تقرئينها له وتضحكين. كان يقول: «هذه البنت ستجعل الأطفال يحبون الكلام».

للمرة الأولى منذ زمن، لم تتذكر مريم سؤال أبيها عن المدرسة. تذكرت كيف كان يستمع إليها.

...

في المساء، فتحت الملف الأزرق.

قرأت الأوراق واحدة واحدة. وجدت حسابات الإيجار، وأقساط القرض، ورواتب العاملين، ورسوم

التسجيل. وفي آخر الملف، وجدت ورقة صغيرة رسمت عليها، منذ سنوات، مكتبة للأطفال.

ثمة نافذة كبيرة في الرسم، وطاولة مستديرة، ورفوف منخفضة يستطيع الصغار الوصول إليها.

بقيت تنظر إليها.

ثم أخرجت ورقة بيضاء وكتبت:

«ما الذي ما زلت أريده من هذا الحلم؟»

توقفت طويلا قبل أن تكتب:

«أن أجلس مع أطفال يقرؤون لأنهم يحبون القراءة.»

نظرت إلى الجملة، ثم عادت إلى حسابات المبنى.

كانت تريد بعض ما في الملف، وتخشى بعضه، ولم تعد تعرف متى خلطت بين الأمرين.

...

لم تعتذر عن المبنى في صباح اليوم التالي، ولم تدفع العربون.

طلبت مهلة قصيرة، وجلست مع محاسب يعرف المشروع. سألته عن الأرقام التي كانت تتجنب النظر إليها، وعن الوقت الذي ستقضيه في الإدارة بدل التدريس، وعن المدخرات التي ستعرضها للخطر.

خرجت من عنده أقل حماساً، لكنها أوضح رؤية.

ثم ذهبت إلى مكتبة الحي.

كانت تعرف أمينتها، السيدة نادية، منذ سنوات. سألتها إن كان بالإمكان استعمال القاعة الصغيرة ساعتين صباح السبت، لتنظيم لقاء للقراءة مع الأطفال.

قالت نادية:

— نجرب شهراً، ثم نرى.

أعجبت مريم كلمة «نجرب». لم تطلب منها قرضاً، ولا وعداً بأن تعرف بقية حياتها.

• • •

حضر إلى اللقاء الأول أربعة أطفال.

كانت مريم قد أعدت ستة عشر مقعداً.

دخل طفل متأخراً، وسألها:

— هل هنا دروس إضافية؟

قالت:

— لا. سنقرأ حكاية.

— وهل ستسأليننا فيها؟

نظرت إلى الأوراق التي أعدت فيها أسئلة كثيرة، ثم طوتها.

— ربما تسألونني أنتم.

لم يجر اللقاء كما تخيلت. قاطعها طفل ثلاث مرات، وتشاجر اثنان على الكتاب نفسه، وقالت طفلة إن النهاية لم تعجبها.

عادت إلى البيت متعبة، وعلى كمها بقعة حبر.

سألها أمين:

— كيف كان الأمر؟

قالت، وهي تخلع معطفها:

— فوضوياً.

ثم ضحكت.

رفع عينيه إليها. كان قد اشتاق إلى هذه الضحكة دون أن ينتبه إلى مقدار اشتياقه.

• • •

في الأسبوع نفسه، اعتذرت عن استئجار المبنى.

بعد المكالمات، أغلقت الباب وجلست على طرف السرير وبكت.

جاء أمين، فجلس إلى جانبها.

قالت وهي تمسح وجهها:

— ظننت أنني سأرتاح حين أقرر.

— وربما تحتاجين إلى وقت.

— أخاف أن أكون قد جبن.

لم يسارع إلى نفي خوفها. سألها:

— هل تريدين أن نراجع القرار مرة أخرى؟

هزت رأسها.

— راجعته. لا أريد تلك الحياة كما صورتها... لكنني كنت أحب أن أكون المرأة التي حققت حلمها.

أمسك يدها، وبقي صامتين.

• • •

بعد أيام، خرجا للمشي.

في البداية تحدثا عن مشتريات البيت وعطل سخان الماء. ثم قالت مريم:

— حين قلت لك إننا لم نعد كما كنا، كنت أظن أن هذا يعني أن شيئا انتهى بيننا.

سألها:

— وماذا تظنين الآن؟

— لا أعرف تماما. لكنني أدركت أنني أنتظر منك أن تعرف ما لا أقوله.

أوما، ثم قال:

— وأنا صرت أسكت حين تتعبين، ظنا مني أنني أريحك. وبعد مدة، اعتدنا السكوت.

لم تحل تلك النزعة كل ما بينهما. اختلفا في الأسبوع التالي، ونسيا موعد المشي مرة أخرى. لكن

مريم بدأت تقول «أنا قلقة» بدل «لا شيء»، وأمين صار يسألها إن كانت تريد أن يتحدثا أو أن تبقى

وحدها قليلا.

كانا يتعلمان تفاصيل صغيرة، بعد أن ظنا طويلا أنهما يعرفان كل شيء.

• • •

مرت ثلاثة أشهر.

صار لقاء السبت يستقبل أحد عشر طفلاً. بعضهم يعود، وبعضهم لا يعود. وما زالت مريم تحضر أكثر مما تحتاج، وما زال طفل في آخر القاعة يسألها كل مرة:
— هل انتهت الحكاية؟

ذات صباح، طلبت منه أن يقترح نهاية أخرى.

فقال:

— يعود البطل إلى البيت، لكنه يدخل من باب مختلف.

ضحك الأطفال.

أما مريم فبقيت صامتة لحظة، ثم كتبت الجملة على السبورة.

• • •

مع آخر أيام الخريف، حملت الملف الأزرق إلى الخزانة.

لم تمزق أوراقه. وضعت داخله تقرير المحاسب، ورسالة الاعتذار عن المبنى، ورسمًا أهدته لها طفلة من لقاء القراءة.

ثم أخرجت ورقة المكتبة القديمة.

رأت النافذة الكبيرة والطاولة المستديرة والرفوف المنخفضة، فابتسمت. لم تكن القاعة التي تستعملها تشبه الرسم، لكنها تذكرت كيف جلس الأطفال السبت الماضي على الأرض لأنهم أرادوا أن يروا الصور معاً.

وضعت الورقة في دفتر التحضير.

في الصباح، خرجت لتكنس العتبة. كانت شجرة التوت شبه عارية، وتحتها أوراق قليلة بللها مطر الليل.

جمعتها بهدوء، ثم رأت ورقة صفراء عالقة عند الباب. التقطتها، ونفضت عنها الماء، وتأملت عروقها الدقيقة.

نادى أمين من الداخل:

— هل أنت جاهزة؟ ستتأخرين عن الأطفال.

— لحظة واحدة.

عادت إلى غرفة الجلوس، وفتحت دفترها عند الورقة القديمة، ثم وضعت الورقة الصفراء بينها وبين الصفحة التالية.

وأغلقت الدفتر برفق.